سينما

أفلامُ نساءٍ في «مهرجان تطوان» [2/1]

لقطات تُنتج مشاعر وصُوراً

في «مهرجان تطوان لسينما البحر الأبيض المتوسّط 2024» أفلامٌ تناولت أحوال المرأة ومصائبها وعيشها في مجتمع أبوي ضاغط وقاسٍ، وظروف صعبة

أمل الجمل

لا تتعلّق قوّة الأفلام بما نراه على الشاشة فقط، لكنْ أساساً بقدرة اللقطات على إنتاج مشاعر عميقة، أو خلق صُور واضحة في عقولنا، تمسّ قلوبنا أيضاً. مثلاً: تدور أحداث «القرن» (2023) في بداية سبعينيات القرن الـ20، لكنّه يستحضر قضية آنيّة، تعانيها النساء: الحقّ في الإجهاض. فيه، تُقدّم خايوني كَمْبوردا، مخرجته ومؤلّفته الإسبانية، لقطات سينمائية متعدّدة الطبقات، ومَشاهد بصرية فيها حمولات رمزية تثير ميراثاً ثقيلاً لقهر المرأة، فبعضها شديد العذوبة والرقة، وبعضها الآخر شديد القسوة والوحشية، بكشفه جمالاً وألماً كونياً تعيشه المرأة في ظلّ النظام الفاشي لفرانكو.

يبدأ الفيلم (إنتاج مشترك بين إسبانيا والبرتغال وبلجيكا) بمشهد ولادة شديد الحيوية ومختلف، فيه امرأتان وطفل وليد. ابتعدت كَمْبوردا عن الصراخ الهستيري، وركّزت على الجسد الأنثوي، كأنّه حيواني جداً. كأنّ ما يهمّها كامنٌ في الجوانب الجسدية أكثر من النفسية. كأنّها تريد أنْ نرى تلك المرأة كيف تتواصل مع جسدها، ثم تتجاوزه. هنا، تقول المرأة لرفيقتها، التي ساعدتها في المخاض: «عارٌ أنْ تكوني بهذه الحيوية، ولا يكون لديك أطفال». ترمقها ماريا إثر تلك الكلمات الجارحة. لاحقاً، تنكشف الحكاية، كما سرّ القرار الصارم.

ماريا ناضجة وقوية وأبيّة، تحمل شخصيتها غموضاً وانطلاقاً. تمتلك روح فنانة (أداء بارع لجانيت نوفاس). كي تحافظ على حريتها، تُجهِض نفسها لئلا تتعرّض للعقاب، في زمن لم يكن الإجهاض فيه قانونياً. يظهر هذا في جرح في البطن، يسألها عنه طفل عند اغتسالها وسط النساء، ثم اعتراف مقتضب لاحقاً. إنّها تساعد النساء الأخريات في الولادة، وفي الإجهاض سرّاً. قبل وقتٍ، تأتيها مُراهِقةٌ، كادت تشترك في الأولمبياد، تُلحّ عليها لمساعدتها في الإجهاض. عند الفجر، تموت الفتاة، ويجدون خمسة قرون في نزيفها، إذْ كانت تستخدم فطر «قرن الجاودار» في الإجهاض. هكذا، تُتّهم ماريا، فتبدأ رحلة الهروب والمخاطرة بحياتها، ومعها تتوسّع رؤية أحوال نساء أخريات، والقهر الذي يتعرّضن له، والإذلال من أجل لقمة العيش في مدن أخرى.

مع ذلك، تُقرّر ماريا تحقيق حلم الأمومة. المُدهش في الفيلم مفارقة أنّها، عندما كان لها

الإسبانية خايوني كَمْبوردا مخرجة «القرن» (روبرت اوكين/Getty)

تكريم ممثلتين وأفلامٌ تعاين أحوال نساء في بلدان عدّة

بيتٌ مريحٌ تتوفّر فيه كافة الإمكانيات، لم تكن قادرة على ذلك بسبب الخوف. وعند هروبها، لم تعد تمتلك مأوى، وكانت تعمل بأجر يومي بخس، لكنّها أصبحت في مكان لا يعرفها فيه أحد، فابتكرت لنفسها شخصية جديدة، واحتفظت بالحلم والجنين في نطاق آمن. مضمون «القرن» قوي، إذ اهتمّت مخرجته كثيراً بالتفاصيل: الحوار والإضاءة والملابس وأماكن التصوير، وإيماءات أبطالها في فريق التمثيل. النسيج السينمائي شاعريّ: شروق الشمس فوق الغابة، حقول القمح، همس الناس وأحاديثهم على الأطراف، عجول تسبح في النهر مع أمّهاتها، نساء يُغنّين تهويدات ويقطفن التوت الأسود أو يجمعن المحار، الرحلة المؤلمة للهروب من القانون، لكنّها شديدة الشاعرية، إذْ أكّدت وضعاً مُعقّداً تعيشه النساء، وقدرتهن على التضامن سرّاً، للإفلات من المصير المظلم، والبقاء على قيد الحياة. «القرن»، المشارك في الدورة الـ27 (29 إبريل/نيسان ـ 4 مايو/أيار 2024) لـ«مهرجان تطوان لسينما البحر الأبيض المتوسط»، أكّد ـ بمضمونه وتوقيع مخرجته ـ الحظّ الوافر للنساء، في مهرجان يُكنّ احتراماً كبيراً لأفلام المرأة. فمن 12 فيلماً في مسابقة الأفلام الطويلة، هناك ستة تناقش قضايا المرأة وشؤونها، لسبع مخرجات. في قسم «خفقة قلب»، هناك ثلاث مخرجات، وخمسة أفلام عن النساء من أصل ستة. إضافة إلى تكريم ممثلتين شابتين، التركية فيلدان آتاسيفير، وتكريمها مؤجّلٌ منذ العام الماضي بسبب زلزال تركيا، التي كشفت في ندوة تكريمها عن شخصية تتمتّع بوعي ثقافي، وعن أنّها قارئة نهمة للأدب العربي والأوروبي وأدب أميركا اللاتينية. علاقتها بالأدب والقراءة رشّحتها لتكون عضوة في لجنة انتقاء السيناريوهات، التي تُشكّلها وزارة الثقافة التركية لتشجيع المخرجين الشباب. والإيطالية إيزابيلا راغونيسي (إنّها مخرجة أيضاً)، التي تُعدّ إحدى أهم ممثلات السينما الإيطالية المعاصرة، والتي لها وثائقيّ بعنوان «روزا.. نشيد الحوريات»، عن أعظم مغنّية عرفتها صقلية إطلاقاً، وهذا أول إخراج لها، عُرض بمناسبة تكريمها في «مهرجان تطوان».

«البحر البعيد» في «أسبوع النقاد 2024»

يوميات سينمائية حادّة لمهاجر مغربيّ

سعيد المزواري

يبدأ «البحر البعيد» بلقطةٍ جميلة لمياه بحر تشقّها باخرة تبتعد عن الشاطئ، بينما ينظر نور بتدبّر نحو ضفة تبتعد شيئاً فشيئاً. نور شاب مغربي عشريني، مهاجر «غير شرعي» في فرنسا، في الفيلم الروائي الطويل الثاني للمخرج والمنتج المغربي سعيد حميش بن العربي، المُشارك في النسخة الـ63 لـ«أسبوع النقاد» (قسم «عروض خاصة»)، في الدورة الـ77 (14 ـ 25 مايو/أيار 2024) لمهرجان «كانّ». شخصيات أخرى تدور في فلك نور الدين (أيوب كريطع)، مانحة الفيلم طابعاً كورالياً جذّاباً وملحمياً. وفياً لوصية ألفرد هيتشكوك باستحسان البدء بالكليشيه، بدل الانتهاء به، يظهر نور الدين، في المشاهد الأولى التي تدور أحداثها عام 1990، رفقة خليلته الفرنسية وصديقيه وخليلة أحدهما الجزائريين، ينفّذون عمليات سرقة بالسلاح، ويسهرون ليبدّدوا كلّ ما سرقوه ليلاً في الشرب والرقص على موسيقى الراي، ثم يمتهنون بيع الملابس والساعات نهاراً، في الأسواق الشعبية في مارسيليا.

الأمور تتعقّد حين يُقبَض عليهم من دون أوراق إقامة، فيتظاهرون بأنّهم برتغاليون. لكنّ نور يدفع الثمن، حين يحرق ضابط الشرطة سيرج (غريغوار كولان) جواز سفره، بعد ملاسنة معه في مشهد قوي، يقبض على قسوة كلبية وكامنة يبديها ضابط الشرطة بعيداً عن المعتاد، من شتم وصفع. هذا اللقاء، الذي يُظنّ أنّه ينتهي هنا، يحمل في الثلث الثاني من الفيلم تطوّرات مليئة بمصادفات ميلودرامية، تعطي الفيلم طابعاً فصلياً وعمقاً روائياً، إذْ ينبري كلّ جزء منه لقصة نور عام 1992، ثم سيرج عام 1994، فزوجة الأخير عام 1996، قبل الفصل الختامي عام 1998. مثلّث حبّ وكراهية غير اعتيادي، برع سعيد حميش

شخصيات تمنح الفيلم طابعاً كورالياً جذّاباً وملحمياً

في اللعب على أضلاعه بناقوس تحكّم درامي كبير، وحوار لافت بدقّته ورهافته، ليعكس بفضله نصّاً خبيئاً يقول الكثير عن علاقة الجاذبية والنفور التي تجمع المهاجرين المغاربيّين في فرنسا، لعلّ أبرز تعبير عنها مشهدٌ يسأل فيه نور الضابطَ سيرج: «لماذا تساعدني؟»، فيجيب: «لا أعرف». يوجّه «البحر البعيد» نقداً لاذعاً لثقافة العنصرية، الكامنة في فرنسا (حتّى لدى الإيطاليين من عائلة سيرج)، والنظرة التحقيرية للعرب، بالهمس والغمز. لكنّه لا يستثني المهاجرين أيضاً من نقده اللاذع، حين يوضح نزعتهم إلى تمضية الوقت مع خليلاتهم والتظاهر بحبّهم، قبل أنْ يبحثوا عن نساء أخريات للزواج بهنّ. بل إنّ نقد تصرّفات العرب يصدر عن نور نفسه في لحظات ضعفه، على غرار اللقطات المؤثّرة التي يتحدّث فيها هاتفياً مع أمّه، في عزّ الصعوبات التي يعيشها. لكنّها، بدل مواساته، تلومه بناءً على ما تتناقله الألسنة عن تصرّفاته في فرنسا. تظلّ الأم خارج الحقل، إلى الفصل ما قبل الأخير (ليس أفضل أقسام الفيلم)، حين يعود نور إلى المغرب، ويواجه ماضيه. من نقاط قوّة العمل استعمال موسيقى الراي لغرض مزدوج: ترسيخ مشاعر الفرح والغضب والخيبة والحزن بألحان شجيّة وأصوات مسكونة، خاصةً أنّ اختيار عدم وضع ترجمة للكلمات عزّز من فكرة أنّ الأغاني نفسها ترجمةٌ لصرخات الشخصيات المغاربية ونظراتها ودموعها.

بلغة الأحاسيس التي لا تضاهيها لغة في قوّة التأثير والنفاذ إلى مكنون النَفس البشرية، لتغدو ملجأهم في منفاهم، كمثل ما يشكّله البلوز للأفروأميركيين، والتانغو للأرجنتينيين. الغرض الثاني (ليس أقلّ أهمية) إحالة إلى أنّ المغاربة والجزائريين يغدون لحمة واحدة في مواجهة الصعوبات، والرقص على موسيقى الراي، خاصةً أنّ نور الدين يتحدّر من «وجدة»، في إشارة إلى مناطق التلامس، حيث ينتفي أي معنى للحدود الجمركية، فيتجلّى المشترك في الموسيقى واللغة والثقافة. لفتةٌ إنسانية رائعة، توضح وظيفة الفنان الحقيقي في البحث عن المشترك، في زمن يقرع فيه آخرون طبول الحرب. يدين «البحر البعيد» بالكثير إلى لحظات الهزل التي تتخلّله، لتخلق توازناً بين الحلو والمرّ. بل لتقطّر ضحكاً حتى الدموع بين أصدقاء. على غرار «كم أحببنا بعضنا البعض» (1974) لإيتوري سكولا. من رحم المتاعب، كمشهد اجتماعهم لخِطبة شابّة للكهل حسن، الذي يحضر الموعد ثملاً (تفادياً للضغط النفسي)، فيفشل مسعاهم. هذا يبدو كأنّه طرف نقيض للمشاهد المؤثرة، التي نرى فيها حسن يشقّ حقول العنب وحيداً ومؤطّراً من الظهر، كنايةً عن المشقّة والجهد المبذول في عمل جاحد. في القسم الأخير، ينسج المخرج وكاتب السيناريو سعيد حميش، ربما لأول مرة في السينما بعد «علي: الخوف يأكل الروح» (1974) لراينر فيرنر فاسبندر، قصة حبّ حقيقية بين مهاجر مغربي وساكنة أصلية، بشكل يقطع مع قصص الزواج للحصول على أوراق الإقامة، أو للإشباع الجنسي. لكنّ هذه العلاقة تسقط سريعاً في امتحان التصوّرات الجماعية، المُغرقة في العنصرية والأحكام الجاهزة من الجانبين.

اللافت للانتباه أيضاً أنّ «البحر البعيد» يبدو كأنّه دمجٌ خلّاق لشكل الفيلمين السابقين لمخرجه: الطويل «عودة إلى بولين» (2018)، من ناحية مواجهة أسئلة ماض مرير، بالعودة إلى مكان الترعرع والانكباب على العنصرية الكامنة في المجتمع؛ والقصير «الرحيل» (2021)، بموضوع التمزّق والامتداد في الزمن، عبر التركيز على أحداثٍ طبعت الثقافة الشعبية (إخفاق هشام الكروج في تحقيق «الذهب» بأولمبياد سيدني عام 2000)، التي تجلّت في «البحر البعيد» في اغتيال مطرب الراي الشاب حسني على أيدي إسلاميين متطرّفين، أو الشغف بفريق «أولمبيك مارسيليا». اقترب «البحر البعيد» من شرط إنساني مُعقّد للمهاجرين المغاربيين في فرنسا. تكثيف ميلودرامي، ونَفَس روائي، وشخصيات جذّابة، نجح في أدائها ممثلون بارعون، أبرزهم أيوب كريطع، من وجهة نظر صادقة لا تشوبها غرائبية أو بكائية. أمّا المؤكّد فكامنٌ في أنّ موهبة سعيد حميش تعد برؤيةٍ من الفئة التي تعيد تناول الثيمة نفسها من وجهات نظر عدّة، وأشكال متجدّدة وطموحة.

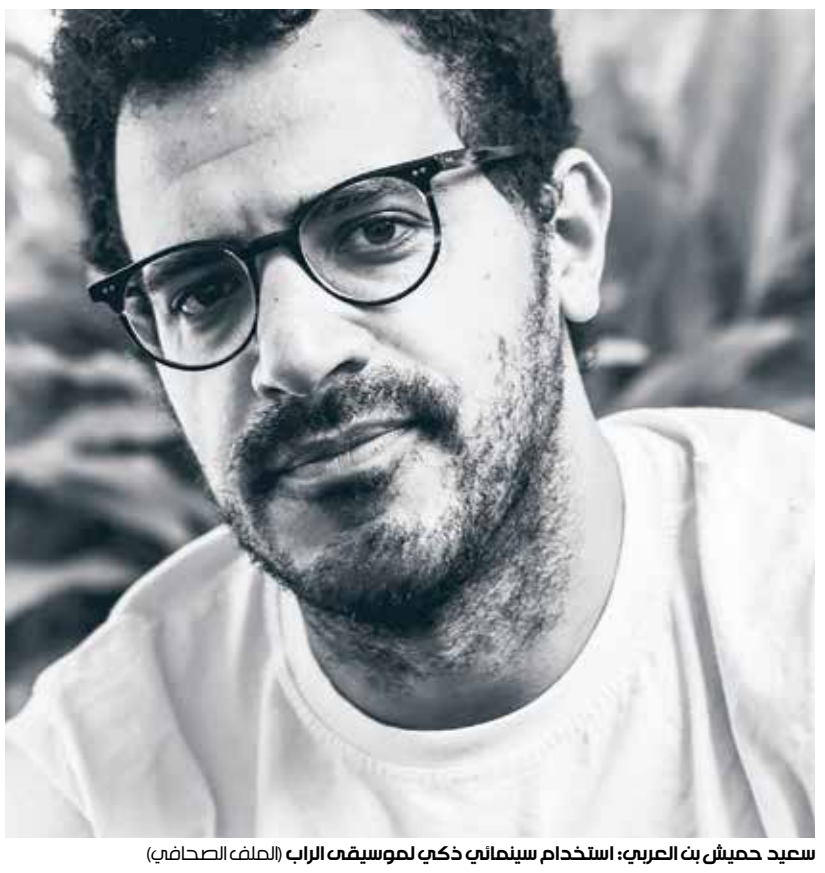
سعيد حميش بن العربي: استخدام سينمائي ذكي لموسيقى الراب (الملف الصحافي)

أفلام جديدة

■ Blue Sun Palace لكونستانس تْسانغ (فيسبوك)، تمثيل لي كانغ تشينغ: خسارة تحدث بشكلٍ مفاجئ تعزّز علاقة غير متوقّعة بين مهاجرين اثنين من الجالية الصينية في «كوينز» الأميركية. بعيداً عن المنزل، يعمل كلّ واحد منهما من دون كلل كي يُعيل نفسه. معاً، يحزنان أيضاً، على أمل العثور على عائلة (يُعرض في «أسبوع النقاد» في مهرجان «كانّ 2024»).

■ La Pampa لأنطوان شوفْرويّيه (WireImage): غاضباً منذ وفاة والده قبل أعوام قليلة، يمضي ويلي أوقاته مع أصدقاء عديدين له في «لا بامبا»، ميدانٌ خاص بممارسة هواية قيادة الدراجات النارية (موتوكروس)، حيث يتدرّب جوجو، أفضل صديق له، كي يشارك في البطولة الفرنسية. كل واحد منهما يحلم بأنْ يكون في مكان آخر، إلى أنْ يأتي يومُ سينهار فيه كلّ شيءٍ حولهما.

■ Mother Of The Bride لمارك واترز، تمثيل بروك شيلدز (Getty) وبنجامن برات وميرندا كوشْغُرْف: منذهلةً من خبر إعلان زواج ابنتها، على لانا أنْ تواجه صدمةً أخرى في وقتٍ قريب، إذْ يتبيّن سريعاً أنّ والد العريس سيكون الرجل الذي حطّم قلبها منذ أعوامٍ.

«هجان» يفتتح «مهرجان روتردام العربي» الـ24

روتردام ـ **العربي الجديد**

أعلنت إدارة «مهرجان روتردام للفيلم العربي» أنّ دورته الـ24، التي تُقام بين 30 مايو/ أيار و2 يونيو/حزيران 2024، تُركّز على «عرض التنوّع والغنى الذي تُقدّمه السينما العربية، من خلال منصّة تُعبّر عن الأحلام والرؤى الاجتماعية والإنسانية للمخرجين العرب، في الوطن العربي والمهجر». أضاف بيانٌ صادر منها أنّ ملصق الدورة الجديدة «يحمل في طياته رمزية عميقة»، تتمثّل بمثلث أحمر «اختير كعنصر رئيسي»، فهذا الشكل الهندسي، المستخدم بكثافة في الفترة الأخيرة، «لم يعد عنصراً بصرياً، إذْ تحوّل إلى رمز من الرموز الفلسطينية». ونقل البيان عن روش عبد الفتاح، رئيس المهرجان، قوله إنّ الملصق «يعكس التزام المهرجان طرح القضايا الفلسطينية وتسليط الضوء عليها بشكل بارز»، لأنّه «منصّة فنية حرّة تُتيح للمخرجين العرب فرصة عرض قصصهم ورؤاهم المتنوّعة، الاجتماعية والإنسانية والدينية والاقتصادية والسياسية»، مُشيراً إلى أنّ «هذا الحدث الفريد» يجمع بين «العمق الفني والاحتفاء بالثقافة العربية، في بيئة تعبر عن الحرية الفنية بلا قيود». تُفتَتح الدورة الجديدة بـ«هجان» (2023، إنتاج سعودي مصري) للمخرج المصري أبو بكر شوقي: «يستعرض الفيلم جمال الصحراء العربية، ويعكس التقاليد الثقافية للمنطقة، مع التركيز على رياضة سباق الجمال، إحدى الرياضات الأكثر شعبية وعراقة في المنطقة»، كما قال عبد الفتاح. يُذكر أنّ معظم مشاهده مُصوّرة في منطقة «تبوك»، ما يضفي على العمل «بُعداً بصرياً يليق بالقصة العاطفية والمغامرة اللتين يُقدّمهما». وأضاف أنّ جديد شوقي «يُقدّم رؤية فنية فريدة تجذب الجمهور العالمي والعربي»، ما يجعله «الاختيار المثالي لافتتاح المهرجان، الذي يسعى إلى عكس الأصوات العربية المتنوّعة والغنية». يروي «هجان»، المعروض للمرة الأولى دولياً في الدورة الـ48 (7 ـ 17 سبتمبر/أيلول 2023) لـ«مهرجان تورنتو السينمائي الدولي»، حكاية صبيّ يُدعى مطر، يعيش رحلة استكشافٍ مليئة بتحدّيات ومغامرات، تنبثق من شغفه بالأيل. يواجه صراعاً من أجل الحرية والحقيقة، عندما يجد نفسه في عالم سباقات الهجن من دون قصد، وعليه حينها أنْ يبذل كلّ ما في وسعه من أجل البقاء على قيد الحياة.